"تعليم التاريخ الإقتصادي والإجتماعي اللبناني والمشرقي – مساهمة في ارساء وحدة مجتمعية تقر بالتنوع وتثمنه – تجارب شخصية"

بطرس لبكي

توطئة

أهم ما يعلق في ذهن اللبنانيين من تاريخهم مرتبط بتاريخ الصراعات بين الطوائف والمناطق على تملك هذا التاريخ وابراز دورها فيه وتجميله. لذلك فهناك عدة تيارات في التأريخ للبنان لها غالباً لون طائفة ومنطقة المؤرخ.

ومع بروز دولة لبنان الكبير والجمهورية اللبنانية المستقلة وتطويرهما للتعليم الرسمي ظهرت تدريجياً وخاصة بعد حروب (1975-1990) قضية الكتاب الموحد للتاريخ كأداة في توحيد رؤية اللبنانيين الى ماضيهم اي الى ذاتهم وهويتهم. وبذلت جهود في تسعينات القرن العشرين بعد نهاية الحروب في داخل لبنان للوصول الى كتاب موحد لتأريخ لبنان ونظمت اجتماعات ومؤتمر ولجان متابعة.

لكن هذه الجهود اخفقت بسبب الخلافات بين كتبة كتب التاريخ المدرسية حول تسمية ووصف وتحليل وتفسير مراحل مفصلية من تاريخه سنفصلها فيما بعد.

لبنان ليس الدولة الوحيدة التي تواجه هذه المشكلة. فأكثرية دول العالم تعاني من هذه المشكلة. اذ في كل دول العالم تنوع سياسي و/او ديني و/او قومي و/او اثني، الخ... وكل مجموعة سياسية او دينية و/او اثنية و/او قومية لها قرأتها للتاريخ وتفسيرها للتاريخ. وسأعطي أمثلة عديدة على ذلك لإبراز شيوع مشكلة الكتاب الموحد للتاريخ وبشكل اعم الرواية الموحدة للتاريخ.

ففي فرنسا البلد الذي له تأثير ثقافي وتعليمي مهم في لبنان، لا ينظر المؤرخون ذوي الإتجاهات السياسية او الفكرية او الدينية المختلفة الى تاريخ فرنسا بنفس الطريقة في مواضيع عديدة: تقييم مرحلة نزع الإستعمار الفرنسي 1945-1962، تقييم الحرب العالمية الثانية، تقييم الثورة الفرنسية وحتى تقييم الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستنت.

والوضع مماثل بالنسبة لإلمانيا مثلاً حيث لا ينظر المؤرخ البروتستنتي والمؤرخ الكاثوليكي الى الوحدة الإلمانية التي تحققت بانتصار بروسيا البروتستنتية على النمسا الكاثوليكية في معركة "Sadowa" عام 1866 بنفس النظرة. فالوحدة الإلمانية تحققت من خلال قهر البروتستنت للكاثوليك بعد عامي 1866 وخاصة بعد عام 1871. وبقي الوضع الدوني للكاثوليك في المانيا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

وكذلك في الولايات المتحدة فالمؤرخون الشماليون والجنوبيون قد لا يصفون الحرب الأهلية الأميركية في سبعينات القرن التاسع عشر بنفس الطريقة. حيث انتصر الشماليون على انفصال الجنوبيين. وكذلك لو كتب الهنود الحمر الأميركيون تاريخ الولايات المتحدة الذي هو بالنسبة للأميركيين البيض تاريخ الزحف نحو الغرب بينما هو بالنسبة لسكان البلاد الأصلين الهنود الحمر تاريخ تهجيرهم وابادتهم. والأمر مماثل بالنسبة للأميركيين الزنوج ذات الأصول الأفريقية الذين استقدموا كرقيق للعمل في المزارع الأميركية.

ويمكن استعراض امثلة مماثلة في كل اميركا الشمالية واللاتينية بين تاريخ المتحدرين من المستعمرين الإسبان والبرتغاليين وتاريخ سكان البلاد الأصلين من الأزتيك والأنكا والأقوام الهندية الأخرى وكذلك الزنوج المستوردين كرق الى منطقة الكاريبب والبرازيل وكولومبيا.

وكذلك في افريقيا الجنوبية والعديد من بلدان آسيا حيث هناك تنوع اثني او ديني: ايران وتركيا وجمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز، والهند، باكستان، وبنغلادش، والصين وماليزيا، واندونيسيا وبورما، واستراليا،وتايلاند، وفيتنام، وكامبوديا، ونيوزيلندا، وغينيا الجديدة وغيرها. والأمر شبيه في العديد من الدول الأوروبية كإسبانيا وايطاليا ودول اوروبا الشرقية: يوغسلافيا السابقة، وسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا وغيرها.

ولنعود الى بيئتنا العربية فالعرب والإمازيغ قد لا يكتبا تاريخ المغرب او الجزائر بنفس الطريقة. كذلك القبطي والمسلم في مصر والشرق - أردني والفلسطيني في الأردن، والنجدي والحجازي واهل المنطقة الشرقية في السعودية والزيدي والشافعي والشمالي والجنوبي في اليمن. وكذلك الأمر بالنسبة للكردي والشيعي والسني في العراق، وفي تركيا حيث لن يكتب الكردي السني أو "الكيزيزلباش" التركي، التاريخ كما يكتبه التركي السني، الخ....

هدف كل هذا السرد هو لتأكيد انه لا يوجد كتاب تاريخ موحد الا في الأنظمة النوتاليتارية حيث يسعى الفريق الحاكم لفرض نظرته الى التاريخ عبر الكتاب الموحد. ولا ينجح غالباً لأن تأثير الأسرة والمحيط المباشر للتلميذ على تكوين ثقافته اهم بكثير من تأثير المدرسة كما تشير الى ذلك العديد من دراسات علم اجتماع التربوي الحقلية.

لذلك فلسنا في لبنان الوحيدون الذين يواجهون هذه المسألة. وهذا لا يعني انه لا يجب ان يبذل جهد موضوعي وعلمي مستقى من مصادركل المجموعات ومقارنتها للأصول المختلفة والمتنوعة الى حد ادنى من الرواية التاريخية الواحدة كما يفعل الباحثون عن حقيقة جريمة او جناية او جنحة.

القسم الأول: ما هي نقاط الخلاف الرئيسية في تعليم تاريخ لبنان: التي هي عديدة وتنطلق غالباً من الإنتماء الطائفي و/او المذهبي و/او الإقليمي و/او الطبقي و/او العائلي احياناً

ان أهم المسائل والفترات الخلافية هي في تصوري:

- الهوية: هل نحن فينيقيين ام عرب ام سوريين ام غير ذلك؟ ومعنى كل خيار في تصور حامليه وكيف تكون بداية تلمس الواقع التاريخي ومعنى المصطلحات.
- مجريات الفتح "العربي الإسلامي": مناصرته ومقاومته. وقد ساهمت كتابات المرحوم ادمون رباط في انارة العديد من وقائع هذه الفترة.
- الحروب الصليبية او حروب الفرنجة: والمواقف منها في الطوائف والمناطق: وبداية تلمس الوقائع التاريخية في كتابات احمد حطيط، والياس القطار وجوليات الراسي وندوة خريف 2010 في جامعة القديس يوسف، وغيرها من الكتابات.
- الفترة المملوكية: والمواقف منها من اولها الى آخرها: حسب الطوائف والتحولات التي فرزتها عند الموارنة والشيعة والعلويين و"الظنية" (سكان الضنية)- ونرى في مؤتمر جامعة البلمند عام 2005 عن الفترة المملوكية بداية تلمس لوقائع تاريخية متنوعة وقد سبقتها كتابات انطوان ضومط والياس القطار وغيرهم.
- الفترة العثمانية: - تجربة فخر الدين المعني والمواقف منها حسب الطوائف والمناطق.

  -تجارب الشهابيين والمواقف منها: القرن الثامن عشر والتطورات في مختلف الطوائف (الشيعية، الدروز، الموارنة،الروم الأرثوذكس، والكاثوليك، الأرمن والسريان) وانتفاضات حكام الولايات وغيرهم.

  -تغيرات القرن التاسع عشر: حملة نابليون وحكم محمد علي وابراهيم باشا، وازدياد نفوذ وتدخل مختلف الدول الأوروبية، حكم بشير الثاني، سقوط الإقطاع والتحولات الإقتصادية والمجتمعية والثقافية والصراعات الناتجة بين الدروز والمسحيين، نظام القائمقامين ثم نظامي المتصرفية والولايات.

  -جبل عامل، البقاع، عكار، الضنية وطرابلس في الفترة العثمانية.
- الفترة الإنتدابية: - اعلان دولة لبنان الكبير : والمواقف منها حسب الطوائف والمناطق.

  -ثورة 1925 وامتداداتها في لبنان

  -الإندماج التدريجي في الكيان الجديد والقوى التي كانت رافضة له: بين الدروزوالشيعة، والسنة، والأرثوذكس.

  -الميثاق الوطني والعبور الى الإستقلال.

- الفترة الإستقلالية: (1943 -1975)

-مواقف مختلف الطوائف والمناطق منها: من اعتبارها الفترة الذهبية الى اعتبارها فترة حرمان وهيمنة.

الحروب بين 1975-1990 والمواقف منها:

- من اعتبارها حرب اهلية من اجل رفع "الهيمنة المارونية"
- الى اعتبارها احتلال فلسطيني – سوري لأستعمال لبنان ساحة في الصراعات الإقليمية وتحالف سنة وشيعة ودروز وبعض المسيحيين مع هذه الإحتلالات من اجل الهيمنة على السلطة، ثم توطين الفلسطنيين في لبنان، وتحالف مسيحيين فترة مع السلطات السورية وفترة مع الإسرائيليين من اجل الدفاع عن انفسهم ومناطقهم وموقعهم في السلطة.

فترة 1990-2005: والمواقف منها:

- من اعتبارها تحقيقاً لسلطة الطوائف الإسلامية السنية خاصة ثم الشيعية والدرزية مع النتائج السياسية والإقتصادية لذلك.
- الى اعتبارها هيمنة للطوائف الإسلامية وخاصة السنية بدعم سوري – سعودي –اميركي وتهميش المسيحيين في السلطة والإقتصاد.

هذا كم من التصورات المختلفة لتاريخ لبنان في فترات طويلة. تخطلت في هذه التصورات المعلومات التاريخية بالأوهام والميول الجماعية ومحاولات استعمال تاريخ قد يكون مزعوم جزئياً لتبرير مواقف حالية. وتحتاج "تنقية الذاكرة الجماعية" الى جهود كبيرة قد يكون مؤتمرنا هذا احدى محطاتها.

القسم الثاني: تجربتي في تعليم التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للبنان والشرق العثماني كمساهمة متواضعة في ارساء وحدة مجتمعية تقر بالتنوع وتثمنه

تسنت لي الفرصة لتعليم مادة: "التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للبنان والبلدان العربية" في معهد الآداب العليا في بيروت التابع لجامعة ليون الثانية عام 1974-1975 ثم في معهد العلوم الإجتماعية – الجامعة اللبنانية – الفرع الثاني – بين 1979 و1988. وكانت هذه المادة تدرس آنذاك في السنة الأولى- قبل ان بقلصها البرنامج الجديد في التسعينات الى مادة: "التطورات الإقتصادية والإجتماعية في لبنان والبلدان العربية." وقد سبقت تجربتي التعليمية تجربة بحثية في تاريخ لبنان والسلطنة العثمانية في مجالات التاريخ الإقتصادي والإجتماعي والسياسي لسنوات عديدة.

لذلك ركزت تعليمي على الفترة العثمانية لأهمية تأثيرها على مجتمعنا واقتصادنا الحاليين. وكانت فترة 1974-1988 فترة من التوتر السياسي والطائفي المعروف اثناء الحروب التي هزت لبنان بين 1975 و1990.

وسعيت من خلال تعليمي لتاريخ الإقتصاد والمجتمع الى وصف وتحليل موضوعي ومتوازن في اطار المعطيات المتوفرة لدي آنذاك من مصادر شديدة التنوع والتجدد التدريجي.

شمل تعليمي كل مناطق لبنان وكذلك بعض محيطه وكل طوائفه وجماعاته لكي يرى كل الطلاب ماضيهم وماضي مناطقهم وطوائفهم في هذا التعليم مع عرض مختلف وجهات النظر وذلك بهدف تبريد الإحتقان الطائفي والمذهبي من اذهان الطالبات والطلاب والمساهمة في تنقية التصورات المسبقة الشائعة والأخطاء التاريخية العالقة بها احياناً.

ركزت على اهم وقائع التاريخ الإقتصادي والإجتماعي والثقافي والسياسي على سبيل المثال لا الحصر ركزت على الوقائع التالية:

-أ- نشاط الإقتصاد (البيع والشراء والإنتاج وتوزيع الثروة) يخلق روابط بين كل الناس مهما كانت دياناتهم وانتمائهم الإتنية على ارض معينة وهي عمليات يتعاون فيها الجميع، مع امثلة عديدة ومتنوعة.

- **ب-** التاريخ الإقتصادي والإجتماعي: يريك تنظيم المجتمع اقتصادياً وسياسياً:

- 1- في الريف: نظام المقاطعجية والتيمار والولاة وتنوعهم، ووضع الفلاحين والرعاة والبدو وعشائرهم.

- 2- في المدن: نظام "الطوائف المهنية" (corporations) وشيوخ "الطوائف المهنية".

- 3- احياناً وجود التقسيم الديني للعمل الإقتصادي مثلاً :

- أ – الصناعات الغذائية ارجحية للمسلمين السنة : لماذا ؟

- ب- صناعة الصياغة : ارجحية للمسيحيين الروم والكاثوليك والأرمن واليهود : لماذا؟

- ج- صناعة الصيرفة : ارجحية للمسيحيين الروم والكاثوليك والأرمن واليهود : لماذا؟

- د- التجارة مع الغرب : ارجحية لوسطاء مسيحيين من طوائف مختلفة : لماذا؟

- ه- التجارة مع الشرق (القوافل) : دور الأرمن: لماذا؟

- و- التجارة البحرية مع الشرق : دور التجار المسلمين سنة وشيعة: لماذا؟

- ز- ملاكي الأراضي كانوا اجمالاً مسلمين سنة وشيعة ودروز وثم مسيحيين : لماذا؟

- ح- وجود تنوع طائفي في عدد من المهن الصناعية والتجارية والزراعية

-4- الإتفاقات التجارية بين السلطات المملوكية والعثمانية من جهة والقوى الغربية من جهة أخرى: نظام الامتيازات ("التنازلات") والحمايات (فرنسا، إيطاليا، انكلترا، إيران، روسيا، النمسا، هولندا). لماذا؟

استنتاجات أولية وآفاق: لماذا تعليم التاريخ الإقتصادي والإجتماعي اللبناني والمشرقي يساهم في ارساء وحدة مجتمعية تقبل بالتنوع وتثمنه

أولا: لأن هذا الجانب من التاريخ يسلط الضوء على التعاون المديد بين الأهالي مهما كانت انتماآتهم المناطقية والدينية والإثنية والقبلية في انتاج وتوزيع واستعمال الثروة التي تشكل جوهر النشاط الإقتصادي. ويسلط الضوء على تنظيم هذه العمليات في المجتمع وعلاقتها بالنظام السياسي. وهذا الجانب من التاريخ يشير الى ان فترات الصراعات بين الطوائف والأقوام والعشائر والمناطق كانت وجيزة وفترات التعاون الوطيد والعيش المشترك السلمي كانت القاعدة.

ثانياً: لأن هذا الجانب من التاريخ يسلط الضوء على وحدة الثقافة وتنوعها في آن في اكثر المجالات، ومعايشة السكان "للوحدة - التنوع" : التنوع المتأتي من الأديان، او من اللغات، او من المناطق او من التنظيم المجتمعي: (طوائف مهنية، في المدن، عشائر في الأرياف)، او من تأثير ثقافات مجاورة: تركية، فارسية، يونانية، هندية. ويسمح لنا ان نرى كيف كان جدودنا يعيشون هذا التنوع ضمن وحدة الثقافة العربية المشرقية.

ثالثاً: كما هناك ميل، برز خاصة في اقسام التاريخ في الجامعة اللبنانية خاصة للقيام بدراسات عن التاريخ الإقتصادي والإجتماعي والسكاني والتربوي في قرى ومناطق من لبنان. وكذلك في الجمعيات العلمية التاريخية ومؤتمراتها والمؤتمرات التي تعقد عن تاريخ مختلف المناطق وخاصة لبنان الشمالي. وقد اغنى هذا النشاط العلمي المكتبة التاريخية اللبنانية وقد يشكل هذا الإغناء موضوع آخر لبحوث مستقبلية له تأثيره المحتمل على تكوين وحدة مجتمعية تثمن التنوع.

ولكن هذا موضوع آخر يستحق التأمل والعمل.